

ظاهرة الحزن في شعر بدر شاكر السياب

بن كرامة عائشة

الجزائر

BADRE CHAKER is famous of the modern Arab poesy; this unhappy poet had along suffered from a chronic disease until he passed away.

In his writings BADRE CHAKER SAYAB was telling about his village "Haikur" which missed because of his immigration abroad, his nostalgic feeling for his childhood village, the nature and the places where he grew up.

His main interests are for the political side, all political events due to his belonging to the communist party.

BADRE CHAKER had a heavy literary weight in Iraq and in the entire Arab world and he will stay so within the ordinary people, journalism and literary circles.

سنحاول من خلال هذا المقال عرض أهم القضايا التي أرقّت بدر شاكر السياب منحت للكتابة الشعرية منحنا حزينا.

أما بدر شاكر السياب الشاعر الذي ابتلي "بما لم يتبل به غيره من الشعراء العرب في العصر الحديث من مرض مزمن قيد حريته ، وحدد مجال حركته. أدرك أن التجربة ضرورة ملحة و مهمة في عملية الإبداع الشعري و تصاعد نموه وتجده الإبداعي⁽¹⁾. فالشعر الأصيل عند السياب هو بحاجة ماسة إلى تجارب متعددة ناتجة عن معاناة و مأساة يعيشها الشاعر. و مع أن السياب في سنواته الأخيرة ،"قد فقد معني البعد ، حين انفرد بمعالجة الموت و فقد القدرة علي الربط بين المحنة الدانية والجماعية"⁽²⁾، التي لم يفلح في التصدي لها ، و هضم تراكمها المفجع"، وكل من يتتبع سيرة السياب منذ أيامه الأولى و هو مقيم بالريف ، يدرك أن الشؤم و الحزن سيطرة علي نشأته الأولى منذ وفاة والدته و هو في سن السادسة ، و تربى في أحضان جدته ، بالفقر ، والداء جعلاً منه شاعراً متشائماً ، " وربما أخذ بطبيعته الريف مأخذ الروعة و السحر و شوغل باللهو في أرجائه، فسها حيناً، وطاب له عيشه الطارئ، إلا أن شعور اليتيم و العوز ظل مترسباً في قاع نفسه ، بل أن فكرة الموت و هاجسه صاحباه عليه فضلاً عن قسوة الحياة، وربما افتقد ثقته بقدر الأشياء و عدالتها وحكمتها. لقد وفد إلى عالم متناقض، متعارض، لا يفقه معني لأحداثه ، والد موجود مفقود، يتمه بوالدته كأما يتمه بولده، أيضاً وحدة تنوء موطوءة بأعبائها"⁽³⁾.

بدر شاكر السياب الشاعر الذي تغنى دائما طوال حياته بقريته "جيكور" التي حرمتها منها الغربة ، و حنينه إلى قرية الطفولة و العودة إليها و مشاهدة بصمات طفولته أين تربى، في ريفها و طبيعته و صوره الفنية و الجمالية، الغربة، المرض و العجز كل هذا ولد في نفسيته مشاعر الحزن و القلق و هذا ما نشاهده في بعض قصائده البديعة.

تلعب السياسة والأحداث السياسية دورا بارزا ومهما في حياة العراقي لأنها الوجه الرئيسي للنشاط الفكري والثقافي والاجتماعي في العراق. فمشاركة العراقيين في الأحداث السياسية جعلهم يستجيبون إلى المعطيات السياسية

استجابة ملحوظة فاهتمام العراقي بأي نشاط ثقافي أو اجتماعي فهو يتحدد بمقدار ارتباط هذا النشاط بالأفكار السياسية ويصدق هذا في الأدب بصفة عامة وعلى الشعر بصفة خاصة.

" ولقد كانت السياسة من دون شك سببا من الأسباب المهمة التي أدت إلى شهرة الزهاوي و الرصافي و الشبيبي وبحر العلوم و الجواهري وانتشار قصائدهم"⁴ إن وعي الشعراء الشباب جعلهم يجربوا الشعر السياسي بأسلوب تقليدي، ولقد شارك بعض الشعراء أمثال الجواهري⁵، ورشيد ياسين وبدر شاكر الشباب ببعض النماذج من القصائد السياسية التي قرؤوها على الناس في الشوارع والتي قد تصبح نموذجا للشعر السياسي. وبدر شاكر نموذج كامل، وهو من أنصار الحرب الشيوعي العراقي.

إن الوضع المحيط الذي عاشه الشباب كان له تأثير قوي على انتمائه إلى الحزب الشيوعي في مرحلة مبكرة من حياته، وكان هذا الانتماء بعيدا كل البعد مفتقرا إلى الانسجام مع مزاجه وشخصيته لأن الشباب كان شخصا عاطفيا حفيا قوميا أخلاقيا "وأنه في تكوينه لم يكن واقعيا اشتراكيا... لقد كان مثاليا... يقوم المثال عنده فوق الواقع ونقيضا له، وحين أصبح شيوعيا كانت الشيوعية بالنسبة له شكلا من هذه الثنائية"

كما كان لهذا الانتماء المبكر تعويضا عن كثير من نواحي الشعور بالفشل، التي كانت تتمثل في إحساسه بقبح وجهه، وفشله بالحب، وفقره، ووحدته، وعلة صحته وخوفه من الموت.

إن طبيعة الانتماء وطقوس العمل الحربي كان لهما تأثير في حياة الشباب الشعرية، لذلك أصبح شعر الشباب ذو وجهتين، فهو يعبر عن نفسه في نمطين من الشعر أحدهما ذاتي يتغلغل داخل الذات ويتوسل النمط الحر. والثاني سياسي يتشبث بالحماسة الخطابية والشعارات عبر نمط تقليدي.

ولكنما لبث أن انقلبت عليه الأمور، لم تصبح كما كانت عليه في البدء، فالانتماء السياسي بدأ يعطي نتائجه السلبية التي عادت على الشباب بالفصل والتشديد والخوف والاعتقال والمعاناة والحرمان.

"لقد كان كل ذلك في البدء موضع فخر الشاعر واعتزازه.. ولكن نفس بدر الحساسية التي تتأثر سلبا وإيجابا بأبسط المؤثرات لم تلبث كما يبدو - أن تأثرت بهذه الظروف ومن هنا بدأ ذلك الصراع الذي يخوضه الإنسان بمفرده بين الاستمرار على الثورة في ظروف قاتلة وبين التحلي عنها"⁶.

لقد أثر هذا الصراع في نفسية الشباب المتشائمة التي كان يعاني منها وخاصة عندما تطور الوضع السياسي والاجتماعي في أوساط الحزب الشيوعي. "وبذلك كان يزيد من وطأة كل هذا أن العمل الحزبي أصبح أكثر صعوبة وأشد خطرا، بحيث أصبح الشباب مؤهلا أن (يكشف) المثالب والشور والنقائص لا في السلطة الرجعية... بل في الناس الذين كان يبارك نضالهم ويمجده"⁷

وكان لا بد على الشباب أن يتخلص من انتمائه إلى الحزب الشيوعي وأن يرجع شاعرا عاديا غير منتم حزبيا، "شرط أن يبقى ذلك مطويا في حدود خاصة لا أن يطرح على صعيد قرائه وأصدقائه والمعجبين به"⁸.

ويحضرنا هنا مقطع من قصيدته "الموسم العمياء" ولقد أثارت هذه القضية ضجة في الوسط الأدبي:

مازلتُ أعرف كل ذاك، فجربوني يا سكارى...

مَنْ ضَاجَعَ الْعَرَبِيَّةَ الْحُسْنَاءَ لَا يَلْقَى خُسَارًا...
 كَالْقَمَحِ لَوْنُكَ يَا بَنَةَ الْعَرَبِ كَالْفَجْرِ بَيْنَ عَرَائِشِ الْعَنْبِ
 أَوْ كَالْفَرَاتِ عَلَى مَلَامَحِهِ دَعَا الثَّرَى وَضَرَاوَةَ الذَّهَبِ
 لَا تَتْرَكُونِي فَالضَّحَى نَسِيًّا مِنْ فَاتِحٍ وَمُجَاهِدٍ وَنَبِيٍّ
 عَرَبِيَّةٌ أَنَا أُمْتِي دِمَها خَيْرُ الدِّمَاءِ كَمَا يَقُولُ أَبِي⁹

لم يتبنى الشيوعيون نشر هذه القصيدة لموقفهم منها، "إذ من الواضح أن المقطع يبدو مفسرا على طبيعة التجربة وطارئا عليها ويزيد من قناعة الباحث في هذا الافتراض: التعليق الذي أثبتته الشباب على هذا المقطع في الجاشية. فقد جاء فيه "صناع مفهوم القومية عندنا بين الشعوبيين والشيوعيين، يجب أن نكون القومية شعبية والشعبية قومية..."¹⁰. فالمقطع قد تعبر بعض الأبيات فيه عن السخرية أحيانا وأحيانا عن الفخر، ولقد أثار هذا المقطع كثيرا من النقاش في أوساط المعلمين العراقيين ويتركز حول ما عانى منه الشباب فتكلم عن العروبة في هذا المقطع فالشباب كان هدفه من هذه القصيدة هو إغاضة الشيوعيين والتقرب من القوميين، لكنه باء بالفشل، بعد هذا بدأ الشباب يبتعد دوما عن القوى السياسية فإذا جاءت ثورة تموز تم الكشف عن أن الشباب كان يتقاضى من الحكومة مبالغ من المال لقاء نشر مقالات في مدحها¹¹.

ويقول الشباب في قصيدته "المومس العمياء" وهو يصف صورة الفلاحين والإقطاع وما عاناه هؤلاء الفلاحين من قمع وتشرد وفقر وحرمان:

وَعُيُونُ فَلَاحِينَ تَرْتَجِفُ الْمَذَلَّةُ فِي كَوَاهِهَا / وَالْعَمْغَمَاتُ رَأَتْهُ
 يَسْرِقُ... / لَوْ أَنَّ غَيْرَ الشَّيْخِ... / وَكَأَنَّ وَسُوسَةَ
 السَّنَابِلِ وَالْجَدَاوِلِ وَالنَّخِيلِ / أَصْدَاءُ مَوْتِي يَهْمُسُونَ

رَأَى يَسْرِقُ فِي الْحَقُولِ / حَيْثُ الْبَيَادِرُ تَقْصِدُ الْمَوْتَى فَقَرَأَ ذَا اتِّسَاعٍ¹²

في هذه الأبيات يصور لنا الشباب صورة فلاح الذي دفع الجوع به أن يسرق من الحقل الذي كان يعمل فيه، وهذا ما أدى بصاحب الحقل قتل الفلاح الذي "رأه يسرق". يبين لنا الشاعر معاناة الفلاحين. وبذلك تمثل قصيدة "المومس العمياء" نموذجا حيا للقصيدة ذات المضمون الاجتماعي. لقد ارتبطت هذه القصيدة ارتباطا عميقا بموضوع البغاء الذي كان منتشرا في العراق والذي كان مباحا رسميا. هذا مما أثار انتباه الأدباء والشعراء والقصاصين، فعالجوا فيه سقوط المرأة بشكل رومانسي، وبذلك أدانوا المجتمع الذي جعل المرأة تحت الضغط بغيا.

فالشباب من الشعراء الذين تأثروا بهذا الموضوع، وقد تبين ذلك في قصيدته "المومس العمياء"، ولقد استطاع الشباب إلمام هذا الموضوع من كل جوانبه في كثير من مجالات الحياة الاجتماعية وتناقضاتها مع عدد من النماذج. "تقدم القصيدة شخصية البغي نموذجا للمسحوقين اجتماعيا واقتصاديا إنها في انحدارها من الريف إلى المدينة يمكن أن تمثل صورة للهجرة التي يدفع إليها واقع الاستغلال في الريف"¹³.

كما كان الشاعر يتكلم ويبين لنا الاستغلال والتسلط الذي كان سائدا في الشبح الشخصية التي تمثل القوة والفلاح الجائع الفقير. وهذا الأخير الحل الوحيد هو التمرد والسرقة لكي يعيش ونهايته القتل. فالقصيدة اشتملت على عدة صور اجتماعية متفرقة تمثل لنا الحياة الريفية ومن بين هذه الصور نفوذ الروح العشائرية وقيمها. و الحس المستسلم لسطوة القدر الذي يغلب على المجتمعات المتخلفة التي تعيش تحت سيطرة الاستعمار والقهر والاستغلال.

"و من المعلوم وتلك أقدار كتبن/ خُتم عليها أن تعيش

بعرضها و على سواها من هؤلاء البائسات.... وشاء رب العالمين... الخ"

فالشاعر يقارن الحياة في الريف بالحياة في المدينة، فالمدينة في رأيه مثقلة بالإدانة والجرائم ولكنها تخفي كل هذا بستار مزين بالعمور، وابتسامات النساء، والمقاهي والملاهي والمتاجر والمصاييح هي عيون المدينة التي تضيئها بالرغم من ظلمتها على عكس الريف الذي يعاني قسوة الحرمان والجوع والفقر والظلم، فثمة سياط الظالمين. إن هذه الظروف الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية التي عاشها السياب كانت لها تأثير على الجانب النفسي، يقول السياب عن المعاناة:

إني شيت مع الجيع مع الملايين الفقيرة

فعرفت أسراراً كثيرة¹⁴

كل اختلاجات القلوب و كل أنواع الدعاء و الحاملات ندورهم إلى قبور الأولياء

الموقدات شموعهن تلق ألسنتها الكثيرة

كسر الرغبة

و يعتصمون دَمُ الشدي إلى الدماء.....

إني خبرت الجوع يعصر في دمي و يمص مائي¹⁵

الآيات الشعرية واضحة تتكلم عن الجوع و الرغبة و النقود و المال، هذا هو التصوير الذي أوضحه السياب و الذي هو واضح كل الوضوح في قصائده.

ففي قصيدة المومي العمياء مثلاً يتحدث عن البغي و عن معاناته و معاناة الناس أمثاله الحاجة و الجوع:

كل الجيع و أهل قَرَّتْهَا أَلْيَسُوا طَيِّبِينَ؟

كانوا جيعاً مثلها هي أو إليها بائسين

هم مثلها و هم الرجال و مثل آلاف البغايا بالخبز و الأطمار يؤتجرون و الجسد

المهين هو كل ما يملكون هم الخطاة بلا خطايا وهم

السكرارى بالشرور كهؤلاء العابرين من السكرارى بالخمور

هؤلاء الفاجرين بلا فجور الشاربين كمن تضاجع نفسها

ثم العشاء الدافنين فروق بالية الجوارب في الحذاء

يتساومون مع البغايا في العشي على الأجور ليوفروا ثمن الفطور" ¹⁶

يؤكد السياب ذل الحاجة إلى النقود عبر تجربته الشخصية و المعاناة التي عانها طيل حياته، و لكن رغم هذه الصعاب و المشاكل النفسية و الاجتماعية و السياسية التي عاشها السياب، إلا أنه كان له وزن أدنى في العراق و في العالم الغربي، و سيقى الأكثر نفوذاً في الوسط الأدبي في العراق و خارجه، و علاقاته على مستوى بلده على ومستوى العالم العربي، فهذه العلاقة تعطي للسياب وزناً ثقيلاً لدى الناس و الصحافة و الوسط الأدبي.

¹ قادة عتاق، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان، اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2001، ص 143

² إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق، ط3، ص 131.

³ إيليا الحايي، الشعر العربي المعاصر دراسة و تقييم، بدر شاكر السياب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج1، ص14

⁴ يوسف الصائغ، الشعر الحر في العراق، منذ نشأته حتى عام 1958 -دراسة نقدية - من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2006، ص104.

⁵ المرجع نفسه ص108

⁶ يوسف الصائغ، الشعر الحر في العراق، ص108 .

⁷ المرجع نفسه، ص 108.

⁸ السياب، الظاهرة الحية الأقلام، 1973، ع9، ص 101.

⁹ بدر شاكر السياب، الديوان، المجلد الأول، دار العودة بيروت، ط2000، ص.ص 509-542.

¹⁰ يوسف الصائغ، الشعر الحر في العراق، ص110.

¹¹ المرجع نفسه، ص 111.

¹² بدر شاكر السياب، الديوان، المجلد الأول، دار العودة بيروت، ط2000، ص.ص 509-542.

¹³ يوسف الصائغ، الشعر الحر في العراق، ص 114.

¹⁴ بدر شاكر السياب، الديوان، المجلد الأول، دار العودة بيروت، ط2000، ص.ص 509-542.

¹⁵ بدر شاكر السياب، الديوان (قصيدة المومس العمياء)، ص.ص 509-542.

¹⁶ المصدر نفسه، ص.ص 509-542